عندما استولوا على «أقفال» الدير وتركوا المفاتيح للرهبان المصريين !

أنيس منصور

الإسرائيلى الذى يمشى فى شوارع القاهرة يضع يديه على أذنيه – فعندنا ضوضاء . . .

والمصرى الذى يمشى فى شوارع تل أبيب يضع يديه على عينيه – فعندهم سيارات بحزونة ! . .

وعلاقات أخرى كثيرة فى الشارع والبيت والمكتب . . وفى علاج مشاكل حياتنا اليومية . وهذا طبيعى . وليكن ذلك مفهوما لدينا جميعا . وبعد ذلك نحاول أن نجعل الأطراف المختلفة تتلاقى وتتوافق . وهذا يحتاج إلى وقت طويل . وعندنا الوقت . وليس عندهم . والأسباب لذلك كثيرة . وقيلت كثيرا أيضا .

وكل هذه البديهيات هى موضع نقاش مستمر عندما تلتقى لجنة تطبيع العلاقات بين البلدين . .

واللجنة قد ذهبت أمس إلى العريش لتحل المشاكل الصغيرة التى تضايق مصر واسرائيل .

فهناك مشاكل عند دخول مصر والخروج منها . مشاكل الأمن وتأشيرات الدخول والعملات والتهريب . . والسائح الإسرائيلى يشكو من طول الإجراءات على الحدود حيث لا يوجد مكان يستريح فيه أو يشرب فيه كوبا من الماء . .

وتدعى اسرائيل أن هناك ٢٠٠ سيارة قد هربت إلى داخل مصر . وهى لذلك تطالب مصر بأن تساعدها فى استردادها . وكل ما تفعله مصر هو أن تطلب أوصافها ورقم المونورات والشاسيهات . ونحن لا ندرى إن كانت هذه الدعوى صحيحة . وقد حدث أن نشرت الصحف الإسرائيلية صورة لسيارة مرسيدس مسروقة . والسيارة واقفة عند مطار القاهرة . وقالت الصحف : إن السيارة ماتزال تحفظ باللوحة الإسرائيلية (؟ !) . .

ويقال أيضا إن جريمة قتل ارتكبت فى غزة وإن القاتل هرب إلى مصر . أو إلى الأردن ومن المألوف أن تتولى مصر إبلاغ البوليس الدولى بأوصاف القاتل ليساعدنا فى العثور عليه . .

ويجب ألا ننخدع كثيرا فى الصور التى تنشرها الصحف للجان المفاوضات أو تطبيع العلاقات . فعندما تلتقط الصورة يكون كل الأعضاء على دراية بذلك . ولهذا تجد الوجوه جادة ومتجهمة لتؤكد للقارئ أن الموقف صعب وخطير وشاق . ولكن وراء هذه المواجهة المهمومة . حكايات طريفة وأحيانا مضحكة . مثلا . واحد يهودى مصرى اسمه إبراهيم الشيرازى ماتت والدته من أربعين عاما . ودفنت فى طنطا . وقرر هذا المصرى أن يستعيد رفاتها . فذهب إلى طنطا . ووجد أن المقابر قد أقيمت فوقها مدرسة ضخمة . وراح يتمشى فى حوش المدرسة . واهتدى إلى أن المكان الذى دفنت فيه والدته يقع بالضبط تحت الحائط الذى أقيمت فيه معامل الطبيعة والكيمياء .

ويتقدم هذا المصرى المخلص لوالدته بأنه على استعداد لبناء هذه المعامل على أحدث طراز إذا سمحنا له بهدمها لعله يجد رفات والدته – مهما كلفه ذلك من مال . .

والرجل مخلص فى رغبته . وهو على استعداد لأن يفعل مثل الرجل اليونانى استطيع فى التنقيب تحت شوارع مدينة الإسكندرية بحثا عن قبر الإسكندر الأكبر . ولم يجد القبر .

وطلبت إليه السلطات المصرية أن يستعين بالحاخام المصرى . وأبدى الحاخام رأيه فى أنه من الصعب الاهتداء إلى رفات والدته التى يريد أن يدفن ولو حفنة تراب من بقاياها ، فى مدينة القدس ! . .

وقصة أخرى فى مدينة المنصورة : جاء بعض اليهود المصريين من البرازيل يبحثون عن رفات أجدادهم بالقرب من قرية الزعفرانة . وكانت معهم خريطة . ولما ذهبوا إلى المكان وجدوا أن المعالم قد تغيرت . فقد بنيت بيوت ومساجد ومدارس . واهتدوا إلى استعدادهم لشراء مساحة من الأرض والتنقيب فيها ، فإذا وجدوا بقايا أجدادهم فسوف يحملونها إلى القدس ، وبعد ذلك يقدمون الأرض هدية إلى أصحابها الأصليين . . ثم سافروا إلى البرازيل والأرجنتين والمغرب وعادوا ومعهم خريطة جديدة . والخريطة تؤكد أن المكان الذى دفن فيه جدهم الكبير يقع بالضبط تحت شريط السكة الحديد وبالقرب من أحد مصانع السيج . . ولابد أنهم قد وجدوا أن الموقف أصبح أصعب كثيرا . فعدلوا عن الفكرة . ولم يعودوا بعد . .

ثم مشكلة العمال المصريين الذين تعيدهم السلطات الإسرائيلية إلى الحدود المصرية لأنهم دخلوا بلا تأشيرة . .

ومشكلة شاب مصرى تقدم للزواج من فتاة إسرائيلية . .

وقد أثير أكثر من مرة : لماذا لا تبعون لنا الفصل ؟ . .

والجواب : ولماذا نبيعه إذا كنا نحتاج إليه ؟ . .

سؤال : ولكنكم تبيعون الفصل إلى دول أوروبية كثيرة . .

والجواب : صحيح لأن هناك عقودا تجارية قديمة . . ولأن هناك ميزانا تجاريا . . ولأننا نريد أن نعرف ما الذى يمكن أن نشتريه منكم . .

سؤال : ونحن على استعداد لأن نقدم لكم كل ما تريدون فلماذا لا تطلبون ؟

جواب : شكرا ! ولكن يجب أن نعرف ما الذى نحتاج إليه . . اعطونا بعض

الوقت لكى نفكر . ولكى نعود إلى المسئولين عن التجارة والصناعة والزراعة . . الخ . .

ولدينا طلبات كثيرة من شبان وعلماء يريدون أن يلتحقوا بالجامعات المصرية . . ولدينا وعود من هيئات إسرائيلية بإلحاق مصريين بجامعاتهم . ولكن كل ذلك سوف يجئ فى موعده . والموعد لم يحن بعد . فما تزال بيننا مشاكل كثيرة فى السياسة . ومازال الطريق طويلا صعبا . وما تزال القضية فى منتصف الطريق – لا نعرف أى طريق . هل هو طريق القاهرة تل أبيب . . أو تل أبيب واشنطون . .

ولكن ما نزال فى الطريق إلى شىء ما بيننا وبينهم . .

ومن الأسئلة التى تحتل الصفحة الأولى فى سجل تطبيع العلاقات : السائح المصرى والسائح الإسرائيلى . .

أما السائح الإسرائيلى أو اليهودى العالمى فيجئ إلى مصر ، فإذا لا يفعل كذلك السائح المصرى ؟ ويكون الرد أن السائح الإسرائيلى يجئ إلى مصر فيجد ما يراه ، وإلى جانب ما يراه يجد الراحة والمتعة والجمال . ثم إنه قادر على مواجهة أسعار الحياة المرتفعة فى القاهرة والإسكندرية والأقصر وأسوان وما بينها . .

ومع ذلك فليس كل يهود العالم يترددون على إسرائيل إذا أرادوا النزهة أو المتعة ، إنهم يفضلون أوروبا أو يتجهون من أوروبا إلى أمريكا وجزر المحيط الهادى . .

ولكن السائح المصرى من نوعية مختلفة . . إن السياح المصريين ليسوا كثيرين ، ودراسة أمزجة السياح المصريين وقدراتهم المالية تحتم عليهم أن يسافروا إلى أوروبا . . وإذا كانت السياحة دينية وأراد أن يعتمر أو يحج فسوف يذهب إلى مكة والمدينة فى السعودية . . أو يذهب إلى النجف وكربلاء فى العراق . أو إلى القاهرة ليرى الأزهر الشريف ومساجد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوى والسيد الدسوقى والمرسى أبى العباس وعشرات غيرهم . . أو يذهب إلى القدس ليرى المسجد الأقصى الذى أحرق قبل ذلك . . ويرى المدينة التى تحزقت والتى توحدت بالقوة ضد مشاعر العالم كله ، مسلمين ومسيحيين ويهوداً أيضا ! . .

أما السائح المسيحى فإنه يجئ إلى مصر ليرى الأماكن التى توقفت عندها العائلة المقدسة ، ويقال إنها عشرون مكانا ويقال أربعون . ولكن فى مقدمتها يجب أن يذهب إلى الكنيسة المعلقة ، التى أوت إلى مغارة تحتها السيدة العذراء والسيد المسيح عليه السلام – وليس لها مثيل فى العالم ! . .

أو يذهب إلى الأديرة المصرية الشهيرة فى التاريخ القبطى ، أو يذهب إلى دير سانت كاترين . .

أو يذهبوا إلى مدينة القدس . . فيروا كنيسة المهد وكنيسة القيامة وطريق الآلام والجلجثة والجسمانية ، وكل الأماكن التى وطئتها قدم المسيح وتعذب فيها ووقف عليها واعظا أو تعلق عليها مصلوبا فداء للبشرية – وكلها فى أيدى السلطات الإسرائيلية منذ احتلال القدس فى يونيو سنة ١٩٦٧ . ولكن من الذى يذهب إلى هذه الأماكن التى أهينت وأهدرت ؟ ثم ماذا فعلت السلطات الإسرائيلية بواحد من هذه الأماكن المقدسة مثل : دير السلطان المصرى القبطى ؟ . .

إن ما حدث لهذا الدير قد جعل الأقباط يحرمون الزيارة إلى القدس ويحرمون إقامة الصلوات والحفلات والمعايدات . وكان فى استطاعة إسرائيل أن تكسب مئات الملايين من وراء الإفراج عن هذا الدير بما فيه من تحف أثرية . .

وقد نقل الرئيس السادات رسالة من الدكتور الأنبا باسليوس مطران كرسى القدس والشرق الأدنى للأقباط الأرثوذكس فى ١٩٧٨/١٠/١٤ يقول فيها :

« إن دير السلطان القبطى هو من أهم المقدسات القبطية المصرية بالقدس . وقد قامت السلطات الإسرائيلية ، كما هو معروف ، باغتصاب كنائسنا القبطية بالقوة فى ١٩٧٠/٤/٢٥ وسلمتنا للأحباش ! وقد فعلت ذلك لضغط سياسى علينا ، باعتبارنا أقباطا مصريين ، وباعتبارمقدساتنا القبطية هى مقدسات وأملاك مصرية . . وقد حاولنا منذ اللحظة الأولى لهذا التحدى اقناع السلطات الإسرائيلية بإعادة ما اغتصبته ، والمحافظة على الاستاتوس كو Status Quo (أى الوضع الراهن لكل شىء على ما هو عليه) حسب وعدها السابق الذى أعلنته أمام جميع رؤساء الأديان عند دخولها القدس بعد حرب يونيو ٦٧ ولكن بدون جدوى . الأمر الذى اضطرنا إلى رفع دعوى أمام محكمة العدل العليا الإسرائيلية بالقدس . وعلمنا المحكمة أصدرت حكمها بتاريخ ٧١/٣/١٦ – على أن السلطات الإسرائيلية لم تنفذ قرار المحكمة . وأصدرت فى ١٩٧١/٣/٢٨ قرارا مؤقتا ضدنا بإبقاء الوضع فى الدير المذكور على ما هو عليه بعد الاغتصاب ، وتشكيل لجنة من وزراء الخارجية والعدل والشرطة والأديان لإعادة النظر فى الأمر . وهذه اللجنة لم تفعل شيئا جديا حتى الآن . .

وهذا الدير يقع بين بطريركية الأقباط بالقدس وكنيسة القيامة وفوق كنيسة القديسة هيلانة التى هى بداخل كنيسة القيامة . وفى الدير توجد كنيستان : كنيسة الملاك ميخائيل وكنيسة الحيوانات الأربعة اللامتجسدة . ويستضيف الدير بعض الرهبان الأحباش . وكان للأحباش دير فى القدس ثم طردوا منه سنة ١٩٤٥ ميلادية وذلك لعجزهم عن دفع الضرائب . وقد آواهم الرهبان الأقباط بعد ذلك . بسبب حالتهم المادية والنفسية أيضا . .

وقد بدأ العدوان الإسرائيلى على الدير منذ عيد القيامة سنة ١٩٩٩ عندما منعوا الرهبان والزوار من التردد على هذه الأماكن المقدسة . .

وقد أرسل الرهبان المصريون لكل هيئات العالم الدينية ٢٥ صورة للأدوات المقدسة : الأوانى والأيقونات والقناديل والستائر والكتب . .

وقد تشكلت لجنة إسرائيلية من خمسة قضاة يرأسهم القاضى الشهير أجرانات . وشاهدوا الدير . ولم يسفر ذلك عن أى شىء . .

وقد نزعت السلطات الإسرائيلية الأقفال القديمة الأثرية ، ووضعت أقفالا جديدة ، أما المفاتيح القديمة فمع المصريين ! . .

وفى أبريل سنة ١٩٧٩ طلب د . الياهو بن اليسار مدير رياسة مجلس الوزراء فى ذلك الوقت ، مقابلة الرهبان المصريين . وعرضوا مشكلتهم . ولم يطرأ جديد . لذلك قرر الرهبان تحريم الحج والزيارة على كل الأقباط الأرثوذكس – وعددهم فى مصر وحدها ثلاثة ملايين . .

ويلاحظ الرهبان المصريون أن مصر قد تساهلت مع اسرائيل كثيرا . فقد سمحت لهم بالاطلاع على الكتب اليهودية المقدسة . بل إن السيد عزيز فاينمان عندما طلب استعادة نسخة قديمة من التوراة . . كان المصريون قد استولوا عليها فى سنة ١٩٧٣ ، أعطيت له ؟!

وعندما طلب الرئيس إسحق نافون من الرئيس السادات أن يسمح لعدد من الباحثين اليهود بأن يطلعوا على المخطوطات القديمة ويصوروها . . وافق الرئيس السادات على ذلك . تحبيبا للعلاقات بين البلدين . . وتطبيعا للعلاقات الوجدانية بين الشعوب ! . .

وعندما طلب أحد أعضاء مجلس العموم البريطانى من الرئيس السادات أن يقوم بإصلاح نسخة للتوراة نادرة على حسابه الخاص ، وافق الرئيس السادات بشرط أن يعيدها إلى مصر . لأنها ملك للطائفة اليهودية المصرية . . ولكن الطائفة اليهودية فى مصر اعترضت على ذلك . فبقيت النسخة فى مكانها احتراما لرغبة يهود مصر ! . .

ومنذ شهرين جاء الأستاذ شيمون شامير أستاذ « التاريخ اليهودى المصرى » فى جامعة تل أبيب . ليدرس المخطوطات المصرية اليهودية . فيسر له ذلك احتراما للعلم والعلماء .

ولما جاء عدد من العلماءاليهود يبحثون عن تاريخ اليهود « القرائين » فى مصر وجدوا مخطوطات نادرة . . ولم تعترض السلطات المصرية على العلماء أو على حرية العلماء فى البحث عن التاريخ الدينى . لأن الحقيقة التاريخية ملك للجميع ، ولصالح الجميع . .

ولذلك فرهبان الدير المصرى قد أقفلوا فى إقناع الأقباط الأرثوذكس بألا يذهبوا إلى القدس – وفى ذلك خسارة مادية فادحة على اسرائيل ! . .

ولذلك فالسياحة إلى اسرائيل لها معنى مختلف وأمامها صعوبات كثيرة . هذه الصعوبات تتولد من طبيعة السائح المصرى ومن الموقف الاسرائيلى المتشدد دينيا وسياسيا أيضا . ثم من استعجال التطبيع دون نظر طويل إلى المسافات التى بيننا ، والتى نعمل جاهدين على تضييقها . فإذا ضاقت المسافات بيننا ، استطعنا أن نرى أنفسنا أوضح وأصدق . .

وذلك يحتاج إلى وقت . . والوقت معناه فى القاموس المصرى : الصبر ومزيد من الصبر ! . .

وأحيانا يكون الصبر له طعم المهزلة أيضا ، وإلا فما معنى أن تستولى السلطات الإسرائيلية على الأقفال القديمة للأديرة ويتركوا معنا مفاتيحها . . فلا معنى للمفاتيح ولا أهمية للأقفال . ولكن المعنى هو الاضطهاد والتعصب . . ثم الشكوى من المصريين الذين لا يجيئون إلى هذه الأماكن ليطرحوا على إهانة مواطنيهم فى بيوتهم وفى دينهم ؟ ! . . □